الباب المُغلق

د. سفين سعد

حاجة لله.

أكثر ما يُكدرني في ذهابي لمنزل صديقي عاطف هو كمية الشحاذين، الذين ما إن يروك حتى يندفعوا مثل سيل يهوي من قمة جبل، يتقاتلون، ويتكالبون، والنهاية بالنسبة لي واحدة: الله يحنن.

أغضبني ذلك الطفل الذي يدعي العرج حتى لكزته بقوة، كأن ضيق الأيام السابقة قد انبثق في كف يدي وهو يلكزه.

حرام عليك.

جاء صوت عاطف مشحونًا بنحنحة طالما رأيتها في عينيه كلما يرى تلك الأشكال.

أخرجَ نقودًا من محفظته، وحدق بعينيه في من حوله، تأكد من عدم متابعة أحد له، ثم أعطاها للطفل: سامحه، لم يقصد أذيتك.

اقتربتُ منه بزاوية تقطع الطريق أمام الطفل: أقصد، وإن كررتها سوف أجعلك تعرج، لكن هذه المرة ليس تمثيلًا كما تفعل.

ركبنا الميكروباص في طريقنا إلى حفل زفاف أحد أصدقائنا، قفزتُ نحو الكرسي الخلفي بجوار الشباك جهة اليمين، وحشرت عاطف في الوسط بيني وبين سيدة تفوح منها رائحة عفونة القبور.

فتحتُ الشباك، تنسمتُ هواءً طازجًا هاربًا من خلف الجبانة القابعة بجوار موقف السيارات.

محتاجة مساعدة.. ابني مريض.

أخرجتْ صورًا لتحاليل وأشعة، وهي تمسح عرق وجهها بخمارها.. جاءت إجابتي عاجلة كعادتي، أغلقتُ الشباك في وجهها وأنا أشيرُ لها بيدي لتنصرف، مد عاطف يده، وهي تُطبق على مبلغ لم أره، محاولًا فتح الشباك لولا ضربي له ومنعه من ذلك، أشار للسيدة أن تلف من الجهة الأخرى، تزحزحت السيدة التي تفوح منها رائحة القبور للخلف قليلًا معطيةً مجالًا لعاطف لكي يمد يده من الشباك، أغمضتُ عيني حتى لا أُكمل المشهد.

تحرك الميكروباص، رحت في عالم ما بين النوم واليقظة، رغم نومي إلا إنني كنت أسمع جميع الأحاديث من حولي.. سمعت حوار

عاطف مع السيدة التي على يساره، وحديث السائق مع الراكب الجالس جواره، وأحاديث أخرى لم أتذكرها.

انتقلت من ذلك العالم إلى الظلام القاتم، حتى رأيت الطفل الذي لكزته، يطلب من والدته الكفيفة أن تنزع له طرف رجله الصناعي، ثم جاءت المرأة التي تمسك التحاليل والأشعة لتجلس بجوار الطفل.

رأيت نورًا بهيًا يُحيطهم، طرقت حاجزًا زجاجيًا يفصلني عنهم، اقترب مني الطفل، تقدم نحوى مجتازًا بابًا لم أره من قبل، لكزني، سقطت على أرضية تغلي فوقها نار لا أرى مصدر إشعالها، تحاملت وأنا أكتوي، رأيت بابًا آخر مفتوحًا، تحركت وأنا أجرّ رجليَّ نحوه، ما إن وصلت حتى أغلقته السيدة وأسندت خلفهُ تحاليل وأشعة ابنها المريض، حاولت دفع الباب بكل قوتي، لكنني لم أستطع.

شعرت بقوة تدفعني للخلف وظلام يحوم حولي، ونار تتسرب داخلي قوتها أضعاف مضاعفة من النيران التي راحت تحيط بي.

رأيت عاطفًا قادمًا من بعيد، اقترب من الباب.

إنه مغلق.

أخبرته قبل أن يفتحه.. نظر نحوي مبتسمًا، دفع الباب، وانفتح! دخل، طلبت منه أن يتركه مفتوحًا حتى أدخل، لكنه لم يستمع إليّ، بدا أنه في عالم غير عالمي.. ركضت بأقصى ما عندي من قوة، مددت يدي نحو الباب، لكن عاطفًا ضربها ومنعها من محاولة دفعه.

تقدم نحوه الطفل بعد أن وقف سليمًا دون عرج، وسيدة الأشعة بجواره، قابلاه بابتسامة تفوح حولها رائحة الياسمين، بينما أنا كنت أقاتل رائحة عفن الأموات التي كانت تنبعث من كل ذرة بجسمي.

رفعت عيني فزعًا مع اصطدام السائق بمطب أزعج الجميع، وأنقذني من العذاب الذي شعرت أني لن أنجو منه للأبد.

بعد أيام رأيت الطفل الذي يعرج يتقدم بحماسٍ وهو يجرّ رجله خلفه، تجاوزني بعد أن رمقني بنظرة نفور، وقف أمام عاطف متهللًا كغريقٍ وجد طوق نجاته، اقتربت منهُ، مددت له يدي، تخشب أمامي مثل لوح ثلج ينز عرقًا من وجهه الملائكي، لم يمد يده لي إلا بعد أن أومأ له عاطف موافقًا.

بحثت كثيرًا عن سيدة التحاليل خلال الأيام التالية لكني لم أجدها.. كنت أراها في أحلامي وهي تُغلق الباب في وجهي.. مازلتُ خائفًا منها، لم ترض عني ولم تسامحني.. مرت سنوات لا أتذكر عددها، وما زالت يدها تغلق الباب في وجهي ولا أدرى كيف أُرضيها؟